رؤية الشاعر الجاهلي للحياة
من خلال رمز الطلل (عرض لرسالة ماجستير)

بقلم : الأمين محمد الصغير
- جامعة الجزائر

إن أهم جزء في القصيدة الجاهلية استرعى انتباه النقاد القدماء والمحدثين هو هذه المقدمات التي يبدأ بها الشعراء قصائدهم ، وقد رأى الباحث أن أهم مقدمة من هذه المقدمات هي المقدمة الطللية . ولهذا كانت محور هذا البحث .

«وقد اتبعنا في هذا البحث منهجاً يعتمد على أمرين أساسيين : أولهما الرجوع الى النص ومحاولة الاستنتاج منه ما أمكن ذلك . وثانيهما محاولة ربط الصور بما كان شائعاً في المجتمع الجاهلي من أساطير وقصص شعبية من جهة ، وبالتقاليد الفنية للشعر الجاهلي من جهة أخرى .

وعلى هذا الأساس لاحظنا أن أهم جزء من بقايا الطلل يتمثل في الأثافي ، وقد شبه بعض الشعراء هذه الأثافي بالنوق ، وشبهها بعضهم بالحمام ، وقد كانت الناقة أسطورة في تفكير الشاعر الجاهلي ، كما كانت الحمامة أيضاً ، وقد حاولنا ربط هاتين الصورتين بما كان شائعاً بين العرب حولها من قصص وأساطير ، وقد أضفنا الى هاتين الصورتين صورة الحية ، وأن كانت قد انفرد بها شاعر من بين هؤلاء الشعراء ، وقد كانت تشبيه الطلل بالناقة والحمامة والحية محوراً للفصل الأول من هذا البحث .

واذا كان اعتمادنا في هذا البحث على الصورة وما توحي به فاننا قد رأينا في الفصل الثاني أن بعض الشعراء يشبه الطلل ببعض آثار الإنسان من كتابة ووشم ونقوش وثياب منقة . وقد حاولنا أن نجد تفسيراً لهذه الصور متبعين في ذلك المنهج الذي سرنا عليه في الفصل الأول .

وكانت هذه الصور توحي بأشياء منها ما ينتمي الى الماضي ، ومنها ما ينتمي الى الحاضر أو المستقبل وكانت كل هذه الصور مشابهة في عمقها للطلل اذ الطلل أثر من آثار الإنسان .

وقد لاحظنا أن الشاعر الجاهلي عندما كان يقف على الطلل كان يتخيل حياة جديدة ، وكان يهيء لهذه الحياة أسبابها ، وأهم سبب للحياة عنده يتمثل في الماء ، فكان الشاعر ينزل المطر على الطلل ، وقد كان المطر عنده يمثل احساسين متناقضين ، كان يؤذي احساسه لأنه يغير معالم الطلل . وكان يبهج مشاعره لأنه يبعث حياة جديدة في الطلل تتمثل في خصب النبات والحيوان . ومن خلال الصور التي يرسمها للنبات والحيوان الذي يرتع في الطلل يتضح لنا أن الشاعر يريد أن يبعث في طلله حياة جديدة مشابهة للحياة القديمة ، وكانت صور هذه الحياة هي ما جاء في الفصل الثالث .

ومن خلال تشبيه الشعراء للمرأة لاحظنا أن هذه الصور ليست غريبة على عالم الطلل ، بل ان الحيوانات التي شبهت بها المرأة ، أو شبهت المرأة بها ، نجد صورها ماثلة في الطلل . وكانت هذه الفكرة محور الفصل الرابع .

وقد رأينا في الفصل الخامس أن الرحلة تبدأ - عند كثير من الشعراء - بعد الوقوف على الطلل ، وان الصراع الدائر فيه يتخلل الرحلة أيضاً وبهذا يتضح أن الرحلة جزء من الطلل .

وأخيراً رأينا أن نعقد فصلاً سادساً نتحدث فيه عن طبيعة هذه الصور التي وردت في المقدمات الطللية ، وقد لا حظنا أن الصورة تطورت وتنوعت تبعا لتطور الحياة وتنوعها ، فالصورة عند الشعراء المتقدمين أمثال أمرىء القيس وطرفة ليست هي الصورة عند الشعراء الذين جاؤوا من بعدهم مثل زهير ولبيد والنابغة وغيرهم .

واذا لابد لكل بحث جاد من نتائج فان أهم فكرة يمكن أن يستنتجها القارىء لهذا البحث هي : أن الشاعر الجاهلي عندما يقف على الأطلال كان يعبر عن مشكلة إنسانية واجهت الإنسان في مختلف العصور ، فمنذ أن وجد الإنسان في هذا الكون وهو يتساءل عن وجوده ومصيره ولعل بكاء الشاعر على الطلل كان يتضمن بكاءه على نفسه ، لأن بقايا الطلل تذكره بمشكلة مصيره في هذه الحياة . هذا ويمكن تلخيص بعض النتائج التي تندرج ضمن هذه الفكرة العامة فيما يلي :

أولاً - أن أبرز فكرة تواجهنا في الفصل الأول من هذا البحث هي فكرة الأمومة التي كان تتجلى في تشبيه الطلل بالناقة والحمامة ونستنتج من هذه الفكرة :

أ – ان الأمومة كانت مقدسة عند القدماء ولهذا نجد بعض الشعراء يستلهمونها أثناء التعبير عن أحاسيسهم المختلفة .

ب – ان الناقة والحمامة كانتا رمزاً لهذه الفكرة لارتباطها بفكرة الأمومة في بعض الأساطير القديمة والفصص الديني .

ج – ان الأمومة كانت ترمز الى الخصب واستمرارية الحياة ولهذا نجد هؤلاء الشعراء يستخدمونها وسيلة للتغلب على فكرة الفناء التي يوحي بها الطلل .

ثانياً – وأهم شيء يمكن استنتاجه من قراءة الفصل الثاني هو انتماء الشاعر الى الحضارات الإنسانية القديمة ويبرز هذا الانتماء الحضاري في تشبيه الطلل بآثار الإنسان من كتابة ووشم وثياب وغيرها . غير أن هذا الانتماء يبرز أكثر في صور الكتابة والثياب ، والشاعر في كل هذا ينطلق من الماضي ، ولكنه يحاول دائماً أن يجدد هذا الماضي بواسطة تجديد صورتي الكتابة والوشم ويمكن تلخيص هذا الانتماء في الاستنتاجات التالية :

أ – انتماء ثقافي ، ويبرز هذا عندما ينسب – مثلاً – صورة الكتابة الى كاتب ينتمي الى حضارة ما وفي الغالب يكون هذا الكاتب يمانيا ، أو عندما ينسب الصحيفة الى الفرس ، وعندما يشبه الطلل بالثياب ينسبها في الغالب الى اليمن لما اشتهر بصنع الثياب الموشاة .

ب – انتماء روحي ، ويجلى ذلك في ربط صورة الكتابة بالدين فعندما يشبه الشعراء الطلل بالكتابة ينسبونها الى الرهبان والأحبار .

ج – انتماء الى التراث الفني ، ونلمس هذا عندما نجد بعض الشعراء يبرزون صورة الكتابة فيما يشبه التعاويذ أو الرقى ، وبذلك يربطون الفن بالماضي لأن بعض الباحثين يرى أن فن الرسم والنحت وما شابهها قد تطور من السحر .

ومن خلال هذه الصور يمكن أن يقول أن الطلل رمز لماضي حضاري يمكن له أن يتجدد .

ثالثاً – وأهم فكرة تصادفنا في الفصل الثالث ، هي فكرة اعادة الحياة الى الطلل ، ويتجلى ذلك في صور الحياة التي يرسمها الشاعر في ربوع الطلل ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي :

أ – عنصر الماء ، عبر الشاعر عن هذا العنصر باحساسين متناقضين شبيهين بتناقض الحياة نفسها ، فهو عنصر خراب يمحو معالم الطلل ، وهو عنصر حياة وخصب يبعث في الطلل حياة

جديدة تتمثل في نبات العشب وقد رسم الشعراء هذا العشب في صور تدل على رغبتهم في خلق حياة جديدة مشابهة له .

ب – خصب الحيوان ، وقد تخيل الشعراء بعض الحيوانات ترعى هذا العشب الذي نبت في الطلل . ولكنهم تخيلوا خصباً آخر يتمثل في توالد هذه الحيوانات .

ج – صور الحيوانات ، بعض الشعراء يرسمون هذه الحيوانات الوحشية في صورة حيوانات داجنة ينتفع بها الإنسان ، وبعضهم يرسمها في صورة تجار يسعون في طلب الرزق . وبعضهم يرسمها في صورة عُبَّاد يؤدون بعض الطقوس الدينية . ومن خلال ذلك نستشف صورة عالم مثالي لدى الشاعر تمتزج فيه الحياة المادية بالحياة الروحية ، وبهذا العالم المثالي يتغلب على فكرة الفناء التي تثيرها في احساسه بقايا الطلل .

رابعاً – ان أهم شيء يلفت الانتباه عند قراءة الفصل الرابع هو صورة المرأة في الطلل ، ويتمثل ذلك فيما يلي :

أ – شبه الشعراء المرأة بالظبي والبقرة الوحشية وهما من الحيوانات التي يتخيل الشعراء عادة أنها تخلف المرأة في الطلل وشبه بعضهم النعامة بالمرأة وهي ثالث حيوانات الطلل كما شبه بعضهم الناقة بالمرأة ، والناقة صورة من صور الطلل اذ شبه بعض الشعراء الأثافي بالنوق .

ب – ان الحيوانات والأشياء التي شبهت بها المرأة تشترك مع بعضها في الصور ، ومعنى هذا أن هناك علاقات بين الصور التي أضفاها الشعراء على المرأة وربما كانت هذه العلاقات أسطورية ترجع الى الماضي البعيد .

خامساً – يبدو من خلال قراءة بعض القصائد الجاهلية أن هناك علاقة بين الرحلة والطلل ، وقد لاحضنا في الفصل الخامس أن هذه العلاقة تبرز فيما يلي :

أ – ان الرحلة تبدأ في الغالب بعد الوقوف على الطلل .

ب – ان الصراع بين الحياة والموت الذي يبرز بوضوح من خلال صور الطلل ، نجد ما يشببه في صور الرحلة عندما يشبه الشاعر ناقته أثناء السير .

ورأينا في الفصل السادس والأخير أن الصورة كانت وسيلة الشاعر في التعبير عن أحاسيسه الإنسانية المختلفة ، وأنها قد عرفت تطوراً ونضجاً بين الشعراء المتقدمين والمتأخرين .

هذه هي أهم النتائج التي توصلنا إليها في هذا البحث قدمناها في هذا العرض الموجز ، ونتمنى أن يجد القارىء لهذا البحث نتائج أخرى لم يتسع المجال لعرضها كما نتمنى أن يكون هذا البحث نواة صالحة لبحوث أخرى .